شحاتة النشار (٢)

ظللت طوال حياتى ماركسيا مخلصا لماركسيتى، ثم أصبحت رأسماليا ناجحا إلى حد كبير، ولم أستطع حتى الآن أن أفسر لنفسى وللآخرين كيف جمعت بين الاثنين.
«شحاتة النشار فى حوارى الأخير معه - قبل رحيله بأسبوعين»

نجح شحاتة فى التجارة، فالتجارة شطارة، افتتح محلا صغيرا فى العتبة، وظل يناضل فى صفوف حدتو بكفاءة وشطارة وفى العمل السرى أيضا كان واحدا من أنشط العناصر الجماهيرية فى القاهرة، شارك بحماس فى تنظيم مظاهرات ١٩٤٦، وفى لجان مكافحة الكوليرا، وكثيرا ما جمع جيرانه التجار وزبائنه من صغار الباعة ليكنسوا الشوارع وينصحوا الفقراء بنظافة بيوتهم خوفا من انتشار العدوى بالكوليرا، كانوا يجمعون المواطنين ليجرى تطعيمهم ضد الوباء سريع الانتشار، ثم بدأ فى مهمة لم يفكر فيها أحد، تأسيس رابطة للباعة الجائلين، كان واحدا منهم منذ أيام طفولته، هم الآن زبائن فى محله وهو يعلم مدى معاناتهم من رجال الشرطة الذين يطاردونهم ويعلم أنهم لا يجدون من يعترف بهم ولا بحقهم فى انتزاع لقمة الخبز التى عرف هو مدى المعاناة فى انتزاعها، ناقشهم وأتوا بباعة آخرين من مختلف الأصناف وأخيرا جمع جمعا غفيرا منهم وأسس «رابطة الباعة الجائلين»، وهو فوق هذا وذاك يكتشف أهمية أن يقرأ وأن يتعلم لكى يصبح جديرا بوضعه فى التنظيم، ولكى يستطيع أن يشرح للقادمين الجدد إلى التنظيم والذين استطاع أن يجمع منهم الكثير، حقيقة الماركسية وحقيقة الأوضاع الاجتماعية وكيفية النضال لتغييرها، ويحكى لى «كنت أعود كل مساء مهدودا ومرهقا.. فالعمل فى المحل مرهق، والنضال اليومى أكثر إرهاقا، لكننى كنت أمضى ساعة أو ساعتين فى قراءة الكتب الماركسية، أم شوقى زوجتى سألتنى إيه الحكاية، وإيه الكتب اللى بتقراها، وأخيرا فاتحتها، قلت لها أنا شيوعى، وأجهدت نفسى فى اكتسابها إلى صفى، هى أنصتت

باهتمام، وقالت يعنى إنت بتدافع عن الفقراء؟ وماله شد حيلك، ولما قلت لها إننى فى تنظيم سرى وقد أسجن قالت ببساطة «متخافش وربنا معاك مادام بتدافع عن الغلابة» ثم قالت «أنا معاك على الحلوة والمرة» وأصبحت بعد هذا الحوار مطمئنا على أم شوقى والأولاد، والحقيقة أنها ظلت دوما سندا لى فى كفاحى وشريكا نشيطا فى العمل السرى، وقد توالت فترات سجنى وفى كل مرة كانت أم شوقى أكثر صلابة وأكثر عطاء، وأكثر نشاطا خاصة فى مظاهرات العائلات.

وتتوالى فترات السجن..

١٩٤٩ قبض عليه ليبقى فى السجن ثلاثة عشر شهرا.

يخرج من السجن فى منتصف ١٩٥٠ ليقبض عليه ١٩٥٢ ويحكم عليه بثلاث سنوات سجنا.

وبعد أن يخرج شحاتة يواصل عمله المزدوج التجارة والنضال، وينجح فى المجالين وينتقل بمحله إلى مكان متميز فى أول شارع السد، وهناك يصبح تاجرا مرموقا. وكان المحل محطة اتصال مهمة لكل من يريد إبلاغ التنظيم بأمر مهم، وفى عام ١٩٥٩ يقبض عليه مرة أخرى ليعيش فترة التعذيب الوحشى ويصمد رجلا مثل كل رفاقه ويبقى حتى ١٩٦٤.

وتمتلئ جعبة شحاتة بذكريات السجون ويروى لى بعضها فى حواره معى وهو يضحك كثيرا ويأسى أكثر.. ومما قاله لى «فى سجن مصر التقيت مع عديد من أصناف السجناء السياسيين وكان هناك المقبوض عليهم فى قضية اغتيال أمين عثمان.. كمال يعقوب، عبدالعزيز خميس، أنور السادات.. وذات يوم شاهدت أنور السادات وهو يتمسكن للشاويش قائلا: أبوس رجلك يا شاويش، واحتقرته وظللت أحتقره، وعندما أصبح السادات رئيسا شعرت بمهانة مريرة.

ويمضى حكاياته لتروى بشاعة التعذيب الوحشى فى سجن أبوزعبل وعندما استشهد شهدى عطية وحضرت النيابة للتحقيق كان الضباط يهددون الجميع لمنعهم من الإدلاء بشهاداتهم، وكانوا يقولون لهم ستذهب النيابة بعد ساعة، وسنبقى نحن لنحاسبكم. وكان شحاتة واحدا ممن تحدوا هذا التهديد وأمام النيابة حكى كل شىء عن التعذيب اليومى واصفا وحشيته وعن أسماء الضباط الذين شاركوا فيه، وعن كيفية استشهاد شهدى وختم أقواله قائلا لوكيل النيابة أحملك مسئولية الحفاظ على حياتى بعد هذه الشهادة.

وحكاية ثالثة خلال عملية ترحيل جماعى للسجناء إلى سجن الواحات، ربطوا كل ثلاثين سجينا فى سلسلة واحدة اسمها الحجلة الضابط يونس مرعى توقع أن تكون محطة «المواصلة» مليئة بالمسافرين فأمر سائق القطار أن يتوقف قبل المحطة بمسافة قصيرة حتى ينزل السجناء لكى لا يهتفوا وسط المواطنين مطالبين كالعادة بالحرية والديمقراطية، هو كان فى الحجلة الأولى وفيما هم ينزلون تحرك القطار وسحب من نزلوا ولم يزل بقية المربوطين معهم داخل القطار الذى سحبهم ليصاب الكثيرون بكسور ورضوض مخيفة أطلق الحراس الرصاص لتنبيه قائد القطار، وعندما توقف القطار كان جسده قد تلقى كسورا عديدة ورضوضا شديدة القسوة، ونجح شحاتة فى أن يقنع أحد الحراس بأن يحمل رسالة لأم شوقى وصف فيها ما حدث التى جمعت العائلات وتزعمتهم فى مظاهرات حاشدة.

وبعد عام ١٩٦٤ خرج ليؤسس مصنعا صغيرا جدا، ثم كبر المصنع رويدا رويدا، ثم أسس هو والرفيق محمد الزعفرانى جمعية تعاونية لأصحاب مصانع التريكو، الأمن اعترض عليهما، أتيا معا إلى خالد محيى الدين الذى توسط لهما فأسسا جمعية تعاونية أخرى ونجحا وأصبحا من أكبر صناع التريكو فى مصر، ويبقى شحاتة دوما تاجرا شاطرا قادرا على إقناع الزبون بأى شىء ويظل أيضا مناضلا شجاعا.. حتى كان حل الحزب، وبعد تأسيس التجمع جاء ليكون معنا.

وأظل كلما التقيته أتذكر الكتاب القديم «الإنسان يصنع نفسه»، ولقد صنع شحاتة نفسه فأحسن صناعتها وظل متألقا ينجح فى المجالين معا.. حتى رحل.